انهيار الحضارة العالمية

طلال أبو غزالة

مرت البشرية بحضارات متعددة منها: الحضارة الرومانية، الحضارة اليونانية، الحضارة العربية والتي قادت العالم لمدة خمسة قرون، وحاليًا الغربية.

إن الحضارة الأمريكية هي امتداد للحضارة الأنغلوساكسونية

إننا نعلم أن الدول الأنغلوساكسونية هي بريطانيا وأمريكيا وأستراليا وكندا وإيرلندا، حيث إن أساس الحضارة الغربية التي يعيشها العالم انطلق من ألمانيا من (ساكسون) في شمال ألمانيا، وهي قبائل ذلك العصر، حيث انتقلت من هنالك إلى ما كان يعرف ب (England) إنجلترا، واندمجوا وتكلموا لغة مشتركة تسمى (Germanic) والتي تعدّ خليط بين الإنجليزية والألمانية الإسكندنافية والهولندية.

لقد بدأت هذه المجموعة من بريطانيا لتنطلق إلى دول العالم ومن أهم ما قامت به اكتشاف أرض أمريكا، فنقلت الحضارة الأنغلوساكسونية إليها، وأصبحت أمريكا القوة الأكبر في الدّنيا، وأصبحنا نتكلم عن الحضارة الأمريكية..

إذن، الحضارة هي «مجموعة من المبادئ، والثقافات، والتقاليد، والأنظمة، والمعارف، واللغة..».

إن ثمة رابطًا دوليًّا حتميًا بين الدول الأنغلوساكسونية؛ لأننا نتكلم أحيانًا وكأننا لا ندرك أهمية العلاقة بين هذه الدول الأنغلوساكسونية، خصوصًا هذه الفترة في الصراع مع الصين أنها موحدة بما يجمعها من ثقافة وتقاليد وعادات وأنظمة ومن أشياء كثيرة ومنها الديمقراطية، وهي ظاهرة نمت وتطورت وازدهرت في النصف الأول من القرن الماضي، ولكنها بعد نصف القرن الأول ودخولًا في هذا القرن أصبحت تجد نفسها أمام صراع وتحدٍّ كبير من عدة نواح، مثل الشّعبوية التي ستلتهم الديمقراطية..

نحن بحاجة لإعادة صياغة مفهوم الدّيمقراطية..

في دراسة لـ (Economist Intelligence Unit) أن نصف سكان العالم يعيشون شيئًا يشبه نوعًا مختلفًا من الديمقراطية ولكن ٥٪ فقط من سكان العالم الحاليين يعيشون نظامًا يمكن أن يوصف بدقة بأنه نظام ديمقراطي، ونحن إذ نتكلم عن الحضارة فإننا كما قلنا نتكلم أنّ العالم مرّ بحضارات مختلفة وهذه طبيعة الحياة ولا يجوز أن نعدّ أن هنالك شيئا دائمًا في هذه الدنيا...

لطالما أستغرب الحديث عن حوار الحضارات؛ لأنه ليس هنالك حضارات تمتد في الوقت نفسه وتتحاور..

إن الحضارة عندما تنتهي، فستبدأ حضارة أخرى؛ حيث إن العمر الافتراضي للحضارات ٢٥٠ سنة، وبالتالي يجب أن ندرك أن البشرية تمر بسلسلة من الحضارات وليس حضارات مجتمعة تتحاور كما حاولت أن توهمنا الحضارة الغربية بأن هنالك تعايشًا وتفاهمًا بين الحضارات..

الحضارة هي: «مجموعة مفاهيم تتحول من نوع أو نمط معين من الأمور التي تميزه حتى تنتقل إلى حضارة أخرى..»

الحضارة الحالية هي حضارة صناعية، وإن انتقال العالم لهذه الحضارة الجديدة كان أحد عناصره أو أركانه «التّحوّل الصّناعي»، والتحول الصناعي يستند إلى استغلال الموارد الطبيعية والأولية من أجل تطوير حياتنا وأساليب معيشتنا في الدّنيا..

إنّ الحضارة الصناعية بطبيعتها حضارة رأسمالية..

عند التّكلّم عن الحضارة الحالية فهي حضارة رأس المال أي أن هنالك فئة تستعمل الموارد كافة لمصالحها وهذا شيء طبيعي وليس انتقادًا وإن كان هنالك دراسة تقول: «نصف سكان العالم يعيشون على دخل يومي بسقف ٣ دولار في اليوم» فيجب أن ندرك أن في هذا العالم الذي نسمع فيه عن الترليونات من الأموال والمليارات التي أصبحت شيئا عاديًا فهنالك ٥٠٪ من البشر دخلهم اليومي ٣ دولارات.

سننتقل للحديث عن موضوعنا المركزي، وهو «انتهاء هذه الحضارة»، فككل حضارة فيجب أن ندرك الثقافة والحضارة أو (Civilization) وهو تعبير لعدة أمور دائمًا مربوطة بالتطور والتقدم مع أنهما مختلفان فقد يكون هنالك تطور في الأساليب والإجراءات، وهذا ليس بالضرورة أن يعني تقدّم..

التقدم يعني أن يكون هنالك محتوى معنوي أي أن ننتقل لشيء أفضل وليس شيئًا جديدًا فقط!

عندما كنت في الأمم المتحدة كان الحديث دائمًا عن التطور فلم يكن موضوع التقدم يشغلنا، وهذا أحد الأسباب الذي سيؤدي لانهيار الحضارة اليوم.

تواجه الحضارة الحالية تحديات كثيرة؛ فعندما تواجه (شحًّا في الموارد)؛ نتيجة لاستنزافها لها، فمثلًا: هنالك دراسة تقول «أن ٥٠٪ من الموارد الحيوانية على الكرة الأرضية قد انقرضت خلال الخمسين سنة الماضية» فهذا ليس مزاحًا، فأنت تتكلم عن عالم كامل استنفدنا منه ما نسبته ٥٠٪ من ثروته الحيوانية ويتوقع في الخمسين سنة القادمة نكون قد استنفذنا كل شيء موجود وهذا تحدٍ كبير يواجه البشرية، وهنالك تحدٍّ آخر هو (التلوث) وهذا موضوع ومع الأسف وبكل ألم أنه أقل موضوع يشغل العالم فهنالك توجيه به وإن كنّا نسمع بعض الصيحات من رؤساء دول ومسؤولين عن خطر هذا الموضوع، ولكنه لا يشغلنا؛ لأن طبيعة هذه الحضارة

الحالية هي الثروة الفردية ثم الثروة المحيطية القريبة، ومن أي نوع كانت ومن ثم دولتي، أما الاهتمام بشؤون العالم أجمع فهو أقل الأولويات، للأسف بالرغم من وجود دراسات وتقارير ومنها ما أثير في الكونغرس الأمريكي ومنها «أنه خلال عشر سنوات ستواجه البشرية تحديًا وجوديًا نتيجة الاحتباس الحراري والتلوث البيئي ونحن الآن نشاهد مظاهره ولكننا نغمض أعيننا فما يحصل من فيضانات وانهيارات طبيعية وتغيّر في المناخ وأنه لم يعد هنالك أربع فصول في السنة ومظاهر الطبيعة بأكملها تغيرت وكلنا نعرف أن سبب هذا هو التلوث ومع ذلك لا يشغلنا لأنه موضوع هام، فما يشغلني أنه كيف أزيد ثروتي؟ كيف أصبح أقوى؟ كيف أقوي اقتصادي المحلي والذاتي؟ فأصبح الاهتمام بالعامة ومصالح البشر ليس أولوية».

تقول بعض الدراسات التي اطلعت عليها:

«إن هذه الحضارة التي نعيشها اليوم عمرها قصير جدًا ولن يكون عمرها كالحضارات التي كانت في السابق، واستمرت مئات السنين»

من المتوقع أننا خلال خمسين سنة سنشهد انتهاء لهذه الحضارة، وأنا لا أتكلم سياسيًا ولا عن القوى والسيطرة العسكرية على العالم ولا من سيحكم العالم بل أتكلم عن موضوع آخر وهو هذه الحضارة بما تمثله من قيم، والديمقراطية بتعريفها التقليدي وأشكالها المختلفة، والثورة الصناعية، ومفاهيم ومعايير الرأسمالية، وكل هذه المفاهيم التي يعيشها العالم وأصبحنا نعدها شيئًا عاديًا أو طبيعيًّا أو دائمًا سنرى أن سبيلها الانقراض لتحلّ محلّها حضارة جديدة، وهنا أكرر أنا لا أقصد الصراع بين الصين وأمريكا أو الصراعات الأوروبية مع بعضها أو مع الخارج بل ما أقصده هذا النظام العالمي الذي نعيش فيه لا يمكن له الاستمرار في ظل الاستمرار باستنزاف المقدرات والثروات الطبيعية، وازدياد الحاجة والفقر، وعدم المساواة بين البشر، وعدم الاهتمام بالبشرية، لقد جاء في مؤتمر حضرته مع (بيل جيتس) حديث عن:

ثورة المعرفة، وهي: «ثورة عظيمة يحركها الذكاء الاصطناعي»..

إنه المحرك الأقوى لعالمنا اليوم، ولكن محتواه الأخلاقي والإنساني ليس موجودًا، فمثلًا نحن نفكر كيف لنا أن نجعل حياتنا أفضل، ونحسّن وضعنا المالي؛ ليصبح أفضل، وكيف نصبح كدولة أقوى نفوذًا، فكان السؤال الذي طرحته:

كم نحتاج من الوقت للانتقال من ثورة المعرفة إلى الثورة التالية والتي أسميها «ثورة الحكمة»؟

فالهدف من التقدم والتطور والابتكار والإبداع والقوة هو تحقيق العدالة والمصلحة الحقيقية لكل إنسان..

ليس لإنساني أنا أو دولتي أنا أو مجموعتي أنا أو فئتي الدّينيّة أنا، فهذا الكلام يدل على أننا في نهاية هذا القرن سيكتشف البشر أنهم كانوا يسيرون على الطريق الخاطئ؛ لأنهم لم يهتموا في البعد الإنساني، بالتالي سيصبح هنالك:

حضارة حقيقة تتكلم عن كيفية إنتاج ثروات واختراع أخرى وتحقيق أخريات من أجل مصلحة البشر والإنسان وليس لمصلحتي أنا..

إن السياسة الدارجة الآن هي «سياسة الأنا» دولتي أولًا، أنا أولًا، مؤسستي أولًا، فعند الانتقال لثورة الحكمة فمن المتوقع أن يصبح هنالك ثقافة وحضارة جديدة تقول إن كل إنسان في هذه الدّنيا مسؤول..

إن عدم العيش بمساواة في الدنيا سيؤدي إلى الانقراض.

إن عدم التفكير في المستقبل سيؤدي إلى انهيار الحضارة.

لكم يسوء أننا قمنا ببيع المستقبل لأجل الحاضر.

إننا لم نفكر في: (ماذا بعد)!

ماذا سنفعل عند انتهاء النفط؟

ماذا سنفعل بعد انتهاء الثروات الحيوانية؟

إن تفكيرنا اليوم في أغلبه هو عن كيف أقوم بتوسعة إنتاجي وتطويره، وكيف سيكون تقدمي في ثروتي الحالية على حساب المستقبل، وهذا موضوع في الحقيقة يجب أن ننظر له باهتمام؛ فالحضارة ليست فقط أن تكون قوة، فلنأخذ الإمبراطورية الرّومانية، فهي لم تنهار بسبب أنها ليست الدولة العظمى أو أنها الدولة الأكبر اقتصادًا في العالم؛ بل لأنها ركّزت كثيرًا في نهاية حياتها على القوة العسكرية والسّلطة التي تمتلكها وتمكّنها من السّيطرة على العالم، ولكنها نسيت كيف تدير المساواة بين المواطنين والمبادئ الأخلاقية والمعنوية مما أدى إلى انهيارها..

لا تنهار الحضارات لأنها لم تعد القوة الأعظم اقتصاديًا أو عسكريًا

القوة العسكرية تنتج عن مبادئ الحضارة الجديدة التي تختلف عن الحضارة التي قبلها.

تعيش القيادات العالمية للحضارة الحالية قلقًا..

إن هنالك بذرة أو ضوء من حضارة جديدة تأتي من الصين ونستغرب نحن وبشكل خاص البعيدين عن هذا الصراع أنه كيف لنا أن نتعايش مع حضارة غريبة وعجيبة مثل الصين بكل ما فيها!

هنا أود التذكير أنه عندما جاءت الحضارة الرومانية كانت غريبة وجديدة ومختلفة على البشر جميعهم، زلقد كثرت التّصريحات الأمريكية حديثًا ذاكرة أن الحضارة الصينية تشكل أكبر تهديد لحضارتنا في هذا العالم، وفي الفترة الأخيرة كثر التهديد للحضارة الغربية ليقول للعالم إنه يجب أن تنتبهوا لأنكم الآن تعيشون معنا ونحن نفهم بعضنا، ونفهم لغة بعضنا البعض..

سيأتيكم هذا الصّيني المختلف في لغته وفي كل شيء فيه..

بينما نحن مختلفون مع الغرب؛ فأنا أتكلم عمّن هو ليس أنغلوساكسوني وليس صيني.

نحن أمام صراع عالمي على الموارد الشحيحة..

إن هنالك توجهات قومية أو عرقية نتيجة للوضع الاقتصادي الذي زاد بسبب وجود الكورونا حيث أصبح كل بلد يفكر بنفسه وبمواطنيه ولا يهتم لأي بلد آخر، أيضًا هذا الشعور الشعبوي الذي يشعر بالظلم ويريد اتخاذ القرارات؛ لأنه يعتقد أن قرارات الدولة الديمقراطية فاشلة، تقول إحدى الدراسات: «إنّ الرّضا عن النظام الديمقراطي انخفض إلى أدنى مستوى حيث كان في أعلى مستوى في منتصف القرن الماضي وانحسرت الدول التي تمارس الدّيمقراطية، وخَرَجَتْ قوة الشعب (الشعبوية) وإن كانت لا زالت غير واضحة».

نحن في صراعات على كل شيء في الدّنيا..

هل هذه الحضارة!

إن هذه الصراعات ليست سهلة؛ فنحن ندرك أن:

الاقتصاد الصناعي في عصر ثورة المعرفة وتقنية المعلومات يتغير بسرعة وينمو ويتطور ويعلو وصولا إلى القمة التي يأتي من بعدها الانهيار..

قد تجد شيئًا في قمته، ولكن خلال فترة قصيرة ينهار وينتهي أو شيئًا صغيرًا يصبح وبشكل مفاجئ شيئًا ضخمًا؛ وذلك بسبب تقنية المعلومات والاتصالات التي سرَّعت في كل البرامج الزمنية للأحداث، وكما يقول شكسبير في إحدى رواياته: «نحن نخترع أحيانًا ما نستعمله ضدنا» فثورة المعرفة العظيمة التي نتشرف فيها؛ إذ ترأست فريق الأمم المتحدة الذي وضع السياسات الشاملة لها في عام ٢٠٠١ هي ثورة عظيمة، وهي من بذور القضاء على الحضارة الحالية لقدرتها على الانتشار والتغير بسرعة والتأثير بكل مجال؛ فهي أداة وليست هدفًا.

اخترعت الحضارة الحالية هذه الثورة التي هي سبب تطور البشر الحالي ولكنها في الوقت نفسه ستكون أداة تسريع القضاء على العالم؛ لأنه لم يعد هنالك إمكانية لكشف عدم المساواة والظلم، أو إمكانية لإخفاء الحقائق، كما أصبحت قدرتها على التغيير السريع موجودة، هنا يجب أن ندرك أنه عندما تكثر الخلافات بين الدول والصّراعات على المصالح والسيطرة على الثروات سيؤدي هذا إلى التباعد والنزاعات الثورية وعدم الرّضا وتقوّي الشعور القومي، فهنالك تصرفات للدول تظن أنها تخدمها ولكنها قد تسيئ لها.

إنه حديث طويل ومعقد، ولكن يجب علينا الانتقال أحيانًا من الحديث عن المشاكل الآنية والوضعية في بلد معين أو منطقة فنحن أكبر من هذا بكثير وهو واقع وليس هنالك شك أنه:

لن تستمر أي حضارة مدى الحياة منذ خلقت البشرية حتى اليوم..

هنالك عشر حضارات على الأقل حكمت العالم في مراحل وانتقلت من مرحلة لأخرى فالحضارة البريطانية كانت هي البداية والآن اندمجت بتأثيرها بالعنصر الأنغلوساكسوني الذي فيها وانتقل للعالم.

نحن أمام دراسات كثيرة تتكلم عن هذا الموضوع ولكنني أتمنى على الأساتذة الذين هم أقدر منّي وأعلم مني أن يركزوا على هذا الموضوع؛ لنستطيع المساهمة في تعريف وصياغة الحضارة القادمة وألا نكون متلقين فقط ومستمعين لما سيحصل.

هدفي من إثارة هذا الموضوع وأنا أتعلّم من علمائنا وخبرائنا ونخبنا الاقتصادية والسياسية هو التركيز على ما هو قادم وليس فقط إحصاء الدولارات، والأموال، والأوضاع الاقتصادية، والسياسية، والمالية، وغيرها بل إلى أين سيتجه العالم؟ وما هي الحضارة القادمة؟ وكيف ستكون؟